

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: 267]

✽ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

بعد ذكر الأمثال الموطنة للأمر بالنفقة على وجهها، شرع في بيان المقصود وهو الأمر بالصدقات بعد أن قدم بين يدي الأمر بها مواعظ ترغيباً وتحذيراً، وهي طريقة بلاغية في الخطاب، بتقديم ما يُرغَّبُ بالمقصود قبل ذكره، وهذا وإن كان من ارتكاب خلاف مقتضى الظاهر في ترتيب الجمل، إلا أنه لما شاع بين الناس التَّريُّبُ في الصدقة، وتكرر ذلك في نزول القرآن، فأصبح غرضاً دينياً مشهوراً، فكان الاهتمام بإيضاحه والتَّريُّبُ فيه والتَّنفيرُ من نقائصه أجدر بالبيان⁽¹⁾.

✽ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا﴾: التَّيَمُّمُ: القصدُ، يقال: أَمَّ ك (رَدَّ)، وَأَمَّ ك (أَخَّرَ)، وَيَمَّمُ، وَتَيَمَّمُ بالتاء والياء معاً، وتَأَمَّمُ بالتاء والهمزة، وكلُّها بمعنى قَصْدٍ، وفُرِّقَ بينها بفروق لطيفة، فقيل: "أَمَّمْتُهُ قَصَدْتُ أَمَامَهُ، وَيَمَّمْتُهُ: قَصَدْتُهُ مِنْ أَيِّ جِهَةٍ كَانَ"، وَأَمَّ فُلَانٌ أَمْرًا، أَي: قَصَدَ، وَالتَّيَمُّمُ: يجري مجرى التَّوَخِّي، يقال: تَيَمَّمُ أَمْرًا حَسَنًا، وَتَيَمَّمُ أَطِيبَ مَا عِنْدَكَ فَاطْعِمَانَهُ⁽²⁾، فَشَمَلَ لَفْظُ التَّيَمُّمِ معنى القصد والتَّوَخِّي، لتحقيق أمرٍ مرغوبٍ في النفس، وهذا المعنى لا يُؤدِّيه لَفْظُ الْقَصْدِ وحده، ولا لَفْظُ التَّوَخِّي وحده.

(2) ﴿تَغْمِضُوا﴾: التَّغْمِضُ⁽³⁾: التَّوَمُّ العارضُ، تقول: مَا ذُقْتُ غَمَضًا وَلَا غِمَاضًا، وَأَصْلُهُ مأخوذٌ ممَّا تَطَامَنُ مِنَ الْأَرْضِ، وجمعه: غُمُوضٌ، ودارٌ غَامِضَةٌ: غير شارعةٍ، وَغَمَضَتْ تَغْمِضُ غُمُوضًا، وَأَمْرٌ غَامِضٌ، غَمَضَ غُمُوضًا، وَحَسَبَ غَامِضٌ غَيْرُ مَعْرُوفٍ، وَخِلَالُ غَامِضٍ: غَمَضَ فِي السَّاقِ غُمُوضًا، وَالْغُمُوضُ: بطونُ الأودية.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/55.

(2) الخليل، العين: (أمم)، والسمين، الدر للصون: 601-600/2.

(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (غمض).

فَالْعُمُوضُ هُوَ ذَهَابُ شَيْءٍ فِي شَيْءٍ حَتَّى لَا يُرَى، أَوْ يُعَامَلَ مُعَامَلَةً مَا لَا يُرَى، وَلِذَلِكَ اسْتَغْمَلُ فِي التَّغَاوُلِ وَالنَّسَاهِلِ عَنِ التَّدْقِيقِ فِي الْأَشْيَاءِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَسْتُمْ بِأَخَذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾.

❁ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ:

خَطَابٌ مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْأَمْرِ بِالْإِنْفَاقِ مِنْ طَيِّبَاتِ كَسْبِهِمْ، مِنَ التَّجَارَاتِ وَالصَّنَاعَاتِ وَالْمِهَنِ، وَمَا أَخْرَجَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ مِنَ الثَّمَارِ وَالزَّرْعِ وَالْمَعَادِنِ، لِيَعْمَ أَنْوَاعُ الرِّزْقِ عَلَى عِبَادِهِ، فَكَمَا مَنَّ عَلَيْكُمْ بِتَسْهِيلِ تَحْصِيلِهَا فَأَنْفَقُوا مِنْهَا شُكْرًا لِلَّهِ، وَأَدَاءً لِبَعْضِ حَقِّهِمْ إِخْوَانَكُمْ عَلَيْكُمْ، وَتَطْهِيرًا لِأَمْوَالِكُمْ، وَتَزْكِيَةً لِنَفُوسِكُمْ مِنَ الْبَخْلِ، وَيَقْتَضِي هَذَا الْأَمْرُ اجْتِنَابَ الْإِنْفَاقِ مِنَ الْمَحْرَمَاتِ، وَنَهَاهُمْ إِذَا أَنْفَقُوا أَنْ يَجْتَنِبُوا اخْتِيَارَ الرَّدِيءِ مِنَ النَّفَقَاتِ لِإِنْفَاقِهِ دُونَ الْجَيِّدِ، وَوَضَعَ لَذَلِكَ مَعْيَارًا فِي مَعْرِفَةِ الرَّدِيءِ مِنَ الْجَيِّدِ: بِأَنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَهُ إِنْ قُدِّمَ لَهُمْ لَوْ كَانُوا فِي مَقَامِ اخْتِزَافِ الصَّدَقَةِ، إِلَّا فِي حَالِ التَّغَاوُلِ عَنِ النَّظَرِ فِيهِ.

ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ سُبْحَانَهُ بِأَنَّهُ غَنِيٌّ عَنْ أَمْوَالِهِمْ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُمِدُّهُمْ بِهَا، وَنَفَعَ صَدَقَاتِهِمْ وَأَعْمَالَهُمْ عَائِدًا إِلَيْهِمْ، وَحَمِيدٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِمَنْ أَنْفَقَ الْحَلَالَ مِنَ الْمَكَاسِبِ، وَاخْتَارَ الطَّيِّبَ الْجَيِّدَ مِمَّا أَخْرَجَهُ اللَّهُ مِنْ رِزْقِ الْأَرْضِ، وَهُوَ الْمَحْمُودُ؛ لِأَنَّهُ الَّذِي يُمِدُّ عِبَادَهُ بِأَسْبَابِ الرِّزْقِ لِيَشْكُرُوهُ عَلَيْهَا، وَعَلَى مَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ مِنَ الْأَوْامِرِ الْحَمِيدَةِ وَالْخِصَالِ السَّيِّدَةِ⁽¹⁾.

❁ الْإِيضَاحُ اللَّغَوِيُّ وَالتَّبْلَاغِيُّ:

النِّدَاءُ بِالْبَعِيدِ وَخَطَابُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْأَسْمِ الْمَوْصُولِ:

بَدَأَتْ آيَةُ بَأْدَاءِ نِدَاءِ الْبَعِيدِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لِتَرْقُبَ مَا بَعْدَ النِّدَاءِ، مِنَ الْأَمْرِ بِالْإِنْفَاقِ، وَلِتَحْفِيزِ الْمُخَاطَبِينَ عَلَى الْإِنْفَاقِ، وَحَثِّهِمْ عَلَى الْإِسْرَاعِ فِيهِ؛ خَاطَبَهُمُ بِالْأَسْمِ الْمَوْصُولِ، وَجَعَلَ صِلَتَهُ الْإِيمَانَ، فَهُوَ الْقَاعِدَةُ الَّتِي يُبْنَى عَلَيْهَا الْعَمَلُ، وَهُوَ الْبِنَاءُ الشَّامِخُ الَّذِي يَقْوَى بِاسْتِطَالَتِهِ وَامْتِدَادِهِ.

وجه النداء
لتحفيز
المخاطبين على
الإنفاق، وحثهم
على الإسراع فيه

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 45.

الابتداء بنداء
البعيد لشمول
جميع المؤمنين
به؛ ولبيان
أن من أخلاق
المؤمنين التصديق
من الطيب لا من
الخبث

قدموا ما يكسب
القبول عند
السامعين قبل
المقصود؛ لبيان
وجه الترغيب
بالصدقة،
والتفكير عن
نقائصه

وجه الإطناب
الإشعار بأن
الإنفاق يجب أن
يقوم على قاعدة
الكسب الطيب

"ابتدأ سبحانه بالنداء بالبعيد للدلالة على عموم النداء للمؤمنين في كل الأجيال من وقت البعث المحمدي إلى يوم القيامة، وكان النداء للمؤمنين لبيان أن من أخلاق أهل الإيمان أن يتصدقوا من الطيب لا من الخبيث، ومما تحبه النفس لا مما تزهد فيه، فليس من مقتضيات الإيمان"⁽¹⁾.

بلاغة الافتتاح بالأمر:

أفضى قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ إلى المقصود وهو الأمر بالصدقات بعد أن قدّم بين يديه مواعظ وترغيباً وتحذيراً. وهي طريقة بلاغية في الخطاب؛ بتقديم المطلوب ثم المجيء بما يكسبه قبولاً عند السامعين، وربما قدّموا ما يكسب القبول قبل المقصود كما هنا. وهذا من ارتكاب خلاف مقتضى الظاهر في ترتيب الجمل، ونكتة ذلك أنه قد شاع بين الناس الترغيب في الصدقة، وتكرر ذلك في نزول القرآن؛ فصار غرضاً دينياً مشهوراً، وكان الاهتمام بإيضاحه والترغيب في أحواله والتفكير من نقائصه أجدر بالبيان"⁽²⁾.

علة إثارة الإطناب الظاهر على الإيجاز:

آثرت الآية الإطناب على الإيجاز في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾، ولم يقل: (أنفقوا مما كسبتم) مع إيجازه؛ لأنّ البلاغة القرآنيّة قامت على رعي المعاني بالألفاظ، والألفاظ خواص المعاني، فأثر النظم الإطناب الظاهر على الإيجاز؛ للإشعار بأنّ الإنفاق يجب أن يقوم على قاعدة الكسب الطيب؛ فكأنّه قال: أَنفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنْفِقُوا مِنْ خَبَائِثِ مَا كَسَبْتُمْ، فحققت الآية بهذا الإطناب الظاهر إيجازاً بديعاً؛ لأنّ النهي عن

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/996.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/55.

الكسب الخبيث ما كان ليعلم إلا بذكر الطيب من الكسب؛ وهذا الإطناب في حقيقته إيجاز، ومثله لا يكون إلا في القرآن الكريم.

انساق التعبير بين مفردة الإنفاق والطيب:

التعبير بالإنفاق في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ يدل على أن المنفق من الطيبات خبيء تحت الأرض؛ لما دلت عليه مفردة الإنفاق، فالنفاق هو أخدود ترابي، فما ينفقه المؤمن يحفظ له تحت الأرض؛ لتنمو وتتكاثر كما سبق في الأمثال المذكورة في سياق الآيات، لكن الذي يزيده البيان القرآني في هذه الآية، هو أن ما يكون خبيئاً تحت الأرض هو الطيبات لا الخبائث؛ فالآية تخاطب المؤمن إرشاداً وتنبيهاً، أن احذر أن تنفق إلا الطيبات؛ لأنها هي التي ستجدها بعد موتك نامية متكاثرة، فهي إشارة عميقة لمن تفكر فيما ينفق، فالطيب في الآخرة أكثر ترعرعاً، وأعظم أثراً من غيره، والمضاعفة مرهونة بنوع المنفق.

دلالة الجمع مع العموم:

دل جمع الطيبات في قوله: ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ على العموم والشمول؛ فدخل فيه كل مكتسب طيب، وهو متسق مع ﴿مَا﴾ المشربة بالعموم، وهذا يدل على أن الإنفاق مقبول في كل كسب طيب متصور، مهما كان قليلاً في عدده، أو صغيراً في حجمه، وإخال قوله ﷺ: "اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ" (1) مستقًى من نور هذه الآية، وهو ما يجعل الفقراء داخلين في زمرة المنفقين أموالهم ابتغاء مرضات الله تعالى.

نكتة إعادة الجار وعدم الاكتفاء بالمتقدم:

أعيد حرف الجر في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾، فلم يقل: (وَمَا أَخْرَجْنَا لَكُمْ)، عطفنا على: ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾،

بناء القيمة
الإيمانية في
التفكير لما بعد
الموت، وما
سيجنيه المؤمن
من أعماله

اشتغال المنفق
كل ما هو
متصور من
التنفقات قل أو
كثُر

(1) صحيح البخاري، حديث رقم: (1417).

إعادة الجارِّ إمَّا
من باب التَّأكيد،
وإمَّا للدَّلالة على
عاملٍ آخرٍ مقدَّرٍ

عُدل عن ذكر
الطَّيبات رعيًّا
للاكتفاء، أو
لغالب في
الأموال المكتسبة

الدَّلالة على
العناية
والرَّعاية،
والامتنان
بالنَّعم الجليَّة

ضمير العظمة
يزيد أمر إخراج
الخيرات عنايةً
ورعايةً وأهميَّةً

أفاد حرف الجرِّ
(مِنْ) معنى
الابتداء، فدلَّ
على شمول الأرض
كلِّها، وعموم
الخارج منها

إمَّا من باب التَّأكيد، وإمَّا للدَّلالة على عاملٍ آخرٍ مقدَّرٍ، أي:
وأنفقوا ممَّا أَخْرَجْنَا، ولا بدَّ من حَذْفِ مضافٍ، أي: ومن طيِّباتٍ
ما أَخْرَجْنَا⁽¹⁾.

نكتة عدم ذكر الطَّيبات في المخرَج من الأرض:

عدم ذِكْرِ الطَّيبات في قوله: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ إمَّا
اكْتفاءً؛ لتقدُّم ذكره؛ فأغنى ذكر المتقدِّم لفظًا عن إعادته، وإمَّا لأنَّ
ما يخرُج من الأرض غالبًا ما يكون طيِّبًا، وغالبُ المال الخبيث يحصُلُ
من اكتساب النَّاسِ؛ كالظُّلْم والغشِّ والاحتكار، وذلك غير متصوِّرٍ في
الثَّمَرات والخُضروات والحُبُوب المُستخرَجة من الأرض⁽²⁾.

تقديم الجارِّ والمجرور:

قدِّم الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ
الْأَرْضِ﴾؛ للاهتمام والعناية، فإنَّ قابليَّة الأرض لإخراج الخيرات
منها، يدلُّ على العناية بالمخاطبين، ويدلُّ كذلك على الامتنان؛ فإنَّ
الإخراج كان لهم.

إسناد الفعل لضمير العظمة:

إسنادُ فعل الإخراج لضمير الفاعل (نا) الدالُّ على العظمة في
قوله: ﴿أَخْرَجْنَا﴾، يزيد أمر إخراج الخيرات عنايةً ورعايةً وأهميَّةً،
فالذي تولَّى إخراجها هو الله تعالى.

دلالة حرف الجرِّ (مِنْ):

أفاد حرفُ ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾
مَعْنَى الابتداء، ولهذا المعنى تصويرٌ بديعٌ؛ فإنَّ الابتداء كائنٌ في
الأرض، لكنَّ أيُّ أرض هي؟ وهذا ما يجعل الابتداء شاملًا للأرض
كلِّها، أي: ما يُخرِجه الله من كلِّ بقعةٍ في الأرض فإنَّ الإنفاق حاصلٌ

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/314، والسمين، الدر للصون: 2/600.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/314، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/56.

فيه، سواء أكان الإخراج زرعاً، أو ثمرًا، أو معادن، فإنَّ الأمر بالإنفاق يشملُه جميعه، فإنَّه ما من بقعةٍ في الأرض إلَّا وفيها نوعٌ خيرٌ خارجٍ للنَّاس، فدلَّ هذا الحرفُ على شمولِ الأرض، وعموم ما يخرجُ منها.

معنى آل في كلمة ﴿الْأَرْضِ﴾:

الذي يفهم من سياق الآية، ومن دلالة حرف ﴿مِنْ﴾ الابتدائية أنَّ الأرض هي كلُّ الأرض، ف (آل) شاملةٌ لها كلُّها، فعلى ذلك يكونُ التعريفُ للجنس، وفي ذلك من الامتنان ما لا يخفى؛ فإنَّه ما من بقعةٍ إلَّا ويخرجُ منها من أنواع الخير ما لا يحيطُ به أحدٌ من الخلق، وهذا امتنانٌ خفيٌّ، يُناسبُ النعمَ الخفيةَ في الأرض.

بلادة عطفِ التَّهي على الأمر:

جاء التَّهيُّ عن قصدِ المالِ الرَّدِيءِ لإنفاقه بعد عمومِ الأمرِ بالإنفاق في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾، وهو ما يُفصلُ المقصودَ بالإنفاق، بأنَّ يكون من أوسطِ المالِ جَوَدَةً، فيجتنبُ توخِّيَ المالِ الرَّدِيءِ، وهذا من تعيينِ المراد بالخطاب، وبلاغته تكمُنُ في دفعِ توهمِ أنَّ الإنفاق يتحقَّقُ في أيِّ مالٍ ما دام حلالاً.

دقَّةُ التعبيرِ بالتَّيَمُّمِ دونَ مرادفاته:

استعملت الآية لفظَ التَّيَمُّمِ دونَ مرادفاته؛ لاشتماله على معنى القصدِ والتَّوخي في تحقيقِ أمرٍ مرغوبٍ في النَّفس، وهذا المعنى لا يُؤدِّيه لفظُ القصدِ وحده، ولا لفظُ التَّوخي وحده، وهذا من بليغِ استعمالِ القرآنِ لمفرداته، فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا﴾ نهْيٌ بليغٌ في تركِ توخِّيِ المالِ الرَّدِيءِ لإنفاقه على الفقراء، وهو يكشف عن مكنونِ النَّفس التي تحرصُ عن قصدٍ وتحرُّ ورغبةٍ في التَّخلُّص من خبيثِ المال، والاستئثار بجيِّده، وهو يَنمُّ عن شحٍّ وبخلٍ ذميم، غيرِ مقبولٍ عنده من صفات المؤمنين.

دلَّت آل على الجنس، وفيه امتنانٌ خفيٌّ يُناسبُ النعمَ الخفيةَ

وجه العطف التفصيل بعد الإجمال، والتَّعيين بعد الإبهام

الكشف عمَّا يجول في النَّفس من معاني الشَّحِّ والحرص

بلاغة تقدير الجملة المحذوفة بالذكورة:

من بلاغة الحذف في القرآن أن يدلَّ المقابلُ المذكورُ، على المقابلِ المحذوفِ، وهو حذفٌ يُعرَف من السَّيَاق، ويقَدَّر من القرائن، فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتِمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ دلَّ على المقابلِ المحذوف وهو: ولا تَتِمَّمُوا الطَّيِّبَ مِنْهُ تَبْقُونَ.

ونكتة حذف هذه الجملة دون التَّصريح بها، هو العلمُ بمضمونها التزاماً لدى المخاطب، ولما تحويه من كَشَفٍ وتعرُّ لحقيقة النَّفس المستأثرة بالطَّيِّب دون الرَّدِيء، وزعمها النَّفَقَة في سبيل الله تعالى؛ فكان لفُ المحذوفةُ بأختها المذكورة أدعى للأوبة من المواجهة، فهي قيمةٌ نفسيةٌ، هدفها تهذيبٌ وتنبيهٌ وتحذيرٌ، من ورائه عملٌ جادٌ، عن الشَّحِّ صَادٌّ.

سرُّ التعبير بالخبيث دون الرَّدِيء:

المفردة القرآنية تكتنزُ المعاني اللغوية والسياقية والثَّانوية، وقد أثرت الآية استعمالَ مفردة الخبيث في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتِمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ والمرادُ بها الرَّدِيء؛ لهدفٍ بيانيٍّ عظيم، وهو تنزيلُ الرَّدِيء منزلةَ الخبيث في الأثر، فإنَّ الخبيثَ "لا يُطْلَق على الرَّدِيء إلا على وجه المبالغة، ووقوع لفظه في سياقِ النَّهي يفيد عمومَ ما يَصْدُقُ عليه اللفظُ"⁽¹⁾، وفيه إشارةٌ إلى النَّفس التي أخرجته؛ فإنَّ نفسَ الكريم تأبى أن تُخْرِجَ إلا ما يُترجم عن مكنونها، ممَّا يُرَبِّي المجتمع على كرمِ النَّفس، وتحاشي اقتراف خسائس الصِّفات.

بديع دقة المقابلة في الحذف بين الجمل:

ورد لفظُ الطَّيِّب⁽²⁾ في الآية وأُريدَ به الحلالُ في قوله: ﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾، وحذف مقابله وهو لفظُ الخبيث المراد به

دلالة المقابل
المذكور على
المحذوف قيمة
نفسية، هدفها
تهذيب وتنبيه
وتحذير، من
ورائه عملٌ جادٌ
عن الشَّحِّ صَادٌّ

تنزيل الرَّدِيء
منزلة الخبيث
مبالغة، وتربية
المؤمن على
تحاشي الفِعال
الرَّدِيئة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/56.

(2) هذا على القول الرَّاجح في المسألة، وهو أنَّ الطَّيِّب هو الحلال، وهو الذي تقوِّيه عمومُ الأدلة، وتشهد له القرائن الاتصالية.

الحرام، وذكر الخبيث⁽¹⁾ المراد به الرديء في قوله: ﴿وَلَا تَيْمَمُوا﴾
 ﴿الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾، وحذف مقابله وهو لفظ الطيب المراد به
 الجيد، فيكون التقدير كالآتي:

أنفقوا من طيبات ما كسبتم، ولا تنفقوا من خبائث ما كسبتم، ولا
 تيمموا الخبيث منه تنفقون، ولا تيمموا الطيب منه تبقون، وهذا من
 أدق مسالك الحذف في القرآن الكريم، فإن الجملة الأولى المذكورة في
 جملة الأمر أعانت على تقدير الجملة الثانية المحذوفة في جملة النهي؛
 لاشتراكهما في لفظ الطيب - وإن اختلف معناهما⁽²⁾ -، وأعانت الجملة
 الأولى المذكورة في جملة النهي، على تقدير الجملة الثانية المحذوفة في
 جملة الأمر؛ لاشتراكهما في لفظ الخبيث - وإن اختلف معناهما⁽³⁾ -،
 وهذا من بليغ الحذف ورصينه، ومن قوي اللفظ وفصيحجه.

تقديم الجار والمجرور على الفعل:

دلالة تقديم الجار والمجرور على فعل ﴿تُنْفِقُونَ﴾ في قوله تعالى:
 ﴿مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾؛ دلالة نفسية، فإن التقديم كشف عما يجول في نفوس
 بعض المنفقين، من المسارعة والمبادرة للتخلص من رديء المال
 وخسيسه، فكأنهم يبحثون في المال عن رديئه ليتخلصوا منه، ولو
 قدم فعل ﴿تُنْفِقُونَ﴾ لاختلف المعنى، إذ لو قال: ولا تيمموا الخبيث
 تنفقون منه؛ لكان القصْد متجهاً إلى الإنفاق ابتداءً، دون لحظ
 ما يصوره التقديم من المعنى النفسي، وهذا من بلاغة التقديم
 المفصحة عما يجول في النفوس، وهو ملحظ يدخل في الإعجاز
 النفسي والغبيي في آن؛ لأنه يكشف عن أمر غبيي كامن في بعض
 النفوس، وهو كذلك يكشف عن بُعد نفسي، يستتبع تربية وعلاجاً.

في الاستغناء
 بالمذكور اقتصاداً
 في المباني واكتنازاً
 في المعاني،
 وبلاغة في
 الحذف

في تقديم
 المجرور دلالة
 الاختصاص؛
 لتوبيخهم بما
 كانوا يتعاطونه
 من إنفاق
 الخبيث خاصة
 لا لتسويغ
 إنفاقه مع
 الطيب

(1) هذا على القول الزاجح في المسألة، وهو أن الخبيث هو الرديء من المال، والقول الآخر بأن المراد به الحرام، حرام عند دقيق النظر، فإنه لا يقوى أمام القرائن، ولا يصمد في مقابلة الأدلة.

(2) فلفظ الطيب المذكورة معناها الحال، والمحذوفة معناها الجيد.

(3) فلفظ الخبيث المذكورة معناها الرديء، والمحذوفة معناها الحرام.

قال العمادي: "الجارُّ متعلق بـ ﴿تُنْفِقُونَ﴾ والضميرُ لـ ﴿الْحَيْثُ﴾ والتقديمُ للتخصيصِ والجملةُ حال من فاعل ﴿تَيَمَّمُوا﴾ أي لا تقصدوا الخبيث قاصرين الإنفاقَ عليه أو من الخبيث أي مختصاً به الإنفاق وأياما كان فالتخصيصُ لتوبيخهم بما كانوا يتعاطونه من إنفاق الخبيث خاصة لا لتسويغ إنفاقه مع الطيب" (1).

صيغةُ فعلِ ﴿تُنْفِقُونَ﴾ وأثرُ السِّياقِ في فهمها:

دلالة (تنفقون)
بيان قبح صورة
المنفق ماله،
والكشف عن
سوء طويته

صَوَّرَ الفعلُ المضارعُ ﴿تُنْفِقُونَ﴾ قباحةَ الإنفاقِ الصَّادِرِ عَمَّنْ يفصلُ المالَ الرَّدِيءَ عن الجيِّدِ، فما أقبحَ صورةَ المنفقِ ماله في هذا السِّياقِ، وما أجملها في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ﴾، فجاء فعلُ الإنفاقِ بصورةِ المضارعِ في سياقين اثنين: أحدهما: كان المنفقُ على أجمل ما يكونُ عَلَيْهِ الوصفُ، والثَّاني: كان المنفقُ على أقبح ما يكون عليه الوصف؛ إذ إنَّ إنفاقه كان للتَّخْلُصِ من المالِ الرَّدِيءِ، لا لِنَيْلِ الجزاءِ الجزيل، مع الحرص على إظهارِ أنَّهم ممَّنْ ينفقون، فأظهرت الآيةُ ما يريدون إظهاره، وكشفت عن حقيقةِ نفوسِهِمْ، بأبدع لفظٍ، وأجزَلِ عبارة، وهذا من أثرِ السِّياقِ في فهم بلاغة الصِّبغِ في القرآن الكريم.

بلاغة القياس التشبيهي:

وجه تشبيه حال
بأخرى؛ لتصوير
قُبْحِ الفعل،
وتداركه

تضمَّنَ قوله تعالى: ﴿وَلَسْتُمْ بِأَخِيذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغِيضُوا فِيهِ﴾ قياساً تشبيهيّاً بديعاً، حيث خاطَبَ الْمُتَنَفِّقِينَ، ونزلهم منزلةَ الْمُتَنَفِّقِ عليهم، وبيَّنَ حالهم إذا أُعْطُوا ما يُعْطَوهُ مِنَ الرَّفْضِ الظَّاهِرِ، أو الأخذ مع التَّعَافُلِ عن حقيقة المأخوذ، وهو ما يدلُّ على أنَّ "كراهيةَ كَسْبِهِ كانت معلومةً لديهم متقرَّرةً في نفوسِهِمْ، ولذلك وقعَ القياسُ عليها" (2).

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/261.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/56.

نكتة التعبير بالإغماض دون غيره:

جاء التعبير بالإغماض دون التغافل، أو التساهل في قوله تعالى: ﴿تُغْمِضُوا فِيهِ﴾؛ ذلك أنَّ لفظ الإغماض فيه معنى التغافل الشديد⁽¹⁾، وتصوير الحال، فإنَّ الإغماض هو غمض العينين، حتَّى لا يرى الرَّائي شيئاً، وهذا يزيد من تقبيح حال المنفق الرديء؛ فإنَّه يتطلَّب إغماضاً حقيقياً حتَّى لا يُرى، وهذا فيه تصويرٌ وتقبيحٌ لمدى رداءة المنفق، ما لا يُصوِّره لفظ: إلا أن تتغافلوا عنه، وممَّا يزيد هذا البيان التعبير بحرف الظرفية، فإنَّ الآخذَ يغمضُ عينيَّه في المال الرديء، بمجرد رؤيته، ولا يُجبرُه عليه إلا الحاجة، وهو ما يعكس قسوة قلب هذا المنفق على الفقراء، وعدم احتياطه فيما يُخرج.

بلادة المجازي في لفظ الإغماض: كناية أو ستعارة:

قال العمادي في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ "هو عبارة عن المسامحة بطريق الكناية أو الاستعارة يقال أغمض بصره إذا غضَّه"⁽²⁾. أو الكراهة فكأن الرائي لكراهته له لا يملأ عينه منه بل يغمض من بصره ويغضُّ عنه بعض نظره بغضاً⁽³⁾.

فالإغماض إطباق الجفن ويطلق مجازاً على لازم ذلك، فيطلق تارة على الهناء والاستراحة لأن من لوازم الإغماض راحة، ويطلق تارة على لازمه من عدم الرؤية فيدل على التسامح في الأمر المكروه، فإذا أرادوا المبالغة في التغافل عن المكروه الشديد قالوا: أغمض عينه على قذى، وذلك لأنَّ إغماض الجفن مع وجود القذى في العين هو لقصد الراحة من تحريك القذى⁽⁴⁾.

لفظ الإغماض
تصويرٌ وتقبيحٌ
لمدى رداءة
المنفق، ما لا
يُصوِّره لفظ
آخر، والكشف
عن قسوة قلب
المنفق

الإغماض هناء،
واستراحة،
وتسامح،
ومبالغة في
التغافل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/58.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/261.

(3) ابن القيم، التفسير القيم: ص: 170.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/57-58.

بلاغة أسلوب الاستثناء:

الاستثناء تقييد
للنفي، أو تأكيد
لشيء بما
يشبه ضده

الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تُغَمِّضُوا فِيهِ﴾ على وجه جعل الكلام إخباراً، تقييداً للنفي. وأما على وجه جعل النفي بمعنى النهي فهو من تأكيد الشيء بما يشبه ضده أما لا تأخذه إلا إذا تغاضيتم عن النهي وتجاهلتموه⁽¹⁾.

نكتة الأمر بعلم للعلوم:

الأمر بعلم أنه
الغني الحميد
توبيخ على
صنيعهم،
وإيدان بنعتهم
بالجهل

أمر سبحانه وتعالى عباده أن يعلموا أنه الغني الحميد: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، وهو أمر معلوم يفيد "توبيخهم على ما يصنعون من إعطاء الخبيث، وإيدان بأن ذلك من آثار الجهل بشأنه عن شأنه"⁽²⁾. فُزِّلَ المخاطبون الذين نُهوا عن الإنفاق من الخبيث منزلة من لا يعلم أن الله غني، فأعطوا لوجهه ما يقبله المحتاج بكل حال ولم يعلموا أنه يحمد من يعطي لوجهه من طيب الكسب، وافتتحه بـ ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ للاهتمام بالخبر⁽³⁾.

انساق الفاصلة مع الآية:

في الفاصلة جمع
بين الترغيب
والترهيب،
تحقيقاً لمنع
التصدق
بالرديء،
وتقوية لفعل
ضده

خُتِمَتِ الآيةُ بقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ إعلاماً للمنفقين بـ ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ باسمه الأعظم المستكمل لجميع صفات الكمال من الجلال والجمال⁽⁴⁾: ﴿غَنِيٌّ﴾ عن أموالهم، فهي "كَالتَّهْدِيدِ عَلَى إعطاء الأشياءِ الرَّدِيئَةِ في الصَّدَقَاتِ، و﴿حَمِيدٌ﴾ بِمَعْنَى حَامِدٍ، أَي: أَنَا أَحْمَدُكُمْ عَلَى مَا تَفْعَلُونَهُ مِنَ الْخَيْرَاتِ"⁽⁵⁾، فهو "من أمثلة المبالغة، أي شديد الحمد؛ لأنه يُثْنِي على فاعلي الخيرات"⁽⁶⁾، فجمعت الصفتان بين الترغيب والترهيب، تحقيقاً لمنع هذا السلوك، وتقوية لفعل ضده.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/58.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/، والكلوسي، روح المعاني: 2/39.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/58.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 4/90.

(5) الرازي، التفسير الكبير: 5/55.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/58.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع، سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1444هـ - 2023م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2023م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38 [إشراف مجمع القرآن

الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2023.

مج. 4، 808 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-798-55-2

يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.

مج. 4: سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-

ألفاظ أ-العنوان ب- مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي: 978-9948-798-55-2

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-5828584 بتاريخ 2023/03/10م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»